بقلم: إبراهيم مصطفى شحاتة

حين يسكنك الحبيب صلى الله عليه وسلم

من القـرآن والسنـة



المقدمـــة

بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه الذي أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، وهدًى للناس أجمعين، وبيّن لنا في سيرته أسمى معاني الحب، وأصدق صور الرحمة، وأكمل الأخلاق التي يمكن أن يتحلى بها بشر. وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

في زمن تكثر فيه الملهيات، وتتزاحم فيه الأفكار، وتضيع فيه القلوب بين ضجيج الدنيا، تبقى سيرة النبي ﷺ النور الذي لا ينطفئ، والمَعين الذي لا ينضب، لكل من أراد أن يطهّر قلبه، ويهذّب نفسه، ويقتدي بخير من وطئت قدمه الأرض. ليس الحديث عن النبي ﷺ مجرد سرد للتاريخ أو حكايات قديمة، بل هو حياة تتجدد، ورسالة خالدة، ومدرسة تربوية متكاملة، تهدي العقول وتغسل الأرواح.

هذا الكتاب لم يُكتب ليكون نسخة مكررة مما كُتب من قبل، بل وُلد ليكون نافذة على قلب النبي ﷺ، نرى من خلالها كيف كان يحب، وكيف كان يتعامل مع البشر، وكيف كان يعيش العبادة بصدق، وكيف تجلت أخلاقه وصفاته في المواقف الكبيرة والصغيرة، في السراء والضراء، في النصر والابتلاء.

لقد اخترتُ أن تكون صفحاته مشبعة بالآيات القرآنية التي تحدّثت عن شخصه الشريف، وبالأحاديث النبوية الصحيحة المسندة، حتى يشعر القارئ أن كل كلمة فيه ليست مجرد رأي أو تأمل، بل هي حقيقة راسخة مستمدة من الوحي. وكل موقف سنسرده سيكون بلغة قريبة من القلب، سهلة على الفهم، تحمل روح المحبة والاقتداء، وتُشعل في النفس شوقًا لأن نعيش كما عاش، ونحب كما أحب، ونعفو كما عفا.

في هذا الكتاب، سنسير معه ﷺ بابًا بعد باب، وفصلًا بعد فصل، نغوص في حياته وعبادته، نقترب من ابتسامته ودمعته، نلمس حلمه وصبره، ونرى كيف جمع بين الرحمة والحزم، وبين التواضع والقيادة، وبين العبادة والعمل. لن نقرأ فقط عن بشر كان عظيماً، بل عن نبي كان بشرًا يفيض قلبه بحب اللّه، وحب الخير للناس جميعًا.

إن هدفي من هذا الكتاب أن يكون رسالة حب عملية، لا مجرد كلمات عابرة، رسالة تغيّر حياة القارئ، تجعله أقرب إلى اللّه، وألصق بسنة نبيه، وأشد حرصًا على أن يعيش كل يوم كما لو أن النبي ﷺ ينظر إليه بابتسامة رضا.

فإلى كل قلب يتوق إلى الاقتداء، وإلى كل روح تبحث عن الطمأنينة، أهدي هذا الكتاب.

نسأل اللّه أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعلنا من المحبين الصادقين لرسوله ﷺ، العاملين بسنته، المتمسكين بهديه، وأن يحشرنا معه في الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب.

الإهـــداء

إلى منارة العلم والدين، الأزهر الشريف، الذي ظلّ عبر القرون حصنًا للفكر الوسطي، ومرشدًا للناس إلى نور الله، أُهدي ثمرة هذا العمل؛ اعترافًا بفضله، وتقديرًا لدوره في حفظ عقيدة الأمة، وصون ميراث الحبيب المصطفى ﷺ.

إلى كل قلب امتلأ بحب النبي ﷺ، وسعى لأن يكون على خطاه، أُهدي هذه الكلمات لتكون وقودًا ينعش الأرواح، ويقربها أكثر من صاحب الخُلق العظيم.

إلى كل معلم علّمني حرفًا، ورباني على القيم والمبادئ، كنتُم أنوارًا على طريقي، وحروفكم ستبقى محفورة في قلبي ما حييت.

إلى أهلي الكرا م، الذين كانوا لي سندًا ودعاءً ودعمًا لا ينقطع، وإلى أصدقائي الذين كانوا رفيق الدرب وبهجة الأيا م.

وإلى وطني الحبيب مصر، أرض التاريخ والحضارة، ومهد العزّة والكرامة، التي علّمتني أن أرفع رأسي عاليًا وأفخر بانتمائي إليها.

إليكم جميعًا... أُهدي هذا الكتاب، راجيًا أن يكون فيه نفع، وأن يقرّبنا جميعًا من الحبيب ﷺ، ومن طريق الحق الذي لا يضل سالكه أبدًا.

الباب الأول: ملامح حب النبي ﷺ في القرآن والسنة

الفصل الأول: حب الله مقرون بحب رسوله ﷺ

الحب في قلب الإنسان ليس مجرد شعور عابر، بل هو قوة تدفعه للسعي، وتحدد طريقه في الحياة، وتبني مواقفه وأخلاقه. وحين يكون الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ، فإنه يصبح نورًا يهدي القلب، ويعمر الروح، ويجعل الإنسان يعيش في طمأنينة وثبات، مهما تقلبت به الأحوال.

لقد ربط الله جل جلاله بين محبته ومحبّة نبيه ﷺ، وجعل اتباع الرسول علامة على صدق هذا الحب. قال تعالى:
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]،
ففي هذه الآية العظيمة جاء الأمر واضحًا: من أراد أن يحبه الله حقًا، فعليه أن يتبع رسوله ﷺ في كل أمره ونهيه، ظاهرًا وباطنًا، حتى ينال محبة الله ومغفرته.

والحب هنا ليس مجرد كلمة تُقال باللسان، بل هو التزام عملي، وسير على خطى النبي ﷺ في العبادات، وفي الأخلاق، وفي كل تفاصيل الحياة. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري:
"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين"
[صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 15]،
فهو ﷺ يعلّمنا أن محبته شرط من شروط كمال الإيمان، وأنها يجب أن تعلو على كل حب آخر، مهما كان قرب صاحبه منا.

وقد تجلت هذه المحبة في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم حتى بلغت حدّ التضحية بكل غالٍ ونفيس لأجله ﷺ. فها هو الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه، يقول كما روى مسلم: "وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له" [صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 121]،
وهذا ليس حبًا عاطفيًا مجردًا، بل حب نابع من معرفة بعظمة خلقه، وصدق رسالته، ورحمته التي عمّت القريب والبعيد.

إن حب النبي ﷺ لا ينفصل عن حب الله تعالى، بل هما متلازمان، فمن أحب الله أحب رسوله، ومن أحب الرسول فقد أحب الله، لأن الله هو الذي أرسله رحمة للعالمين، وجعله قدوة لعباده، وجعل طاعته طاعته، قال تعالى:
﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]،
وهذه منزلة لم ينلها أحد غيره ﷺ، مما يدل على علو مقامه وشرف مكانته عند الله.

وحين نتأمل سيرته، نجد أن محبته لم تكن حكرًا على من عرفه مباشرة، بل حتى من جاء بعده يجد قلبه يشتعل شوقًا إليه بمجرد أن يسمع اسمه الشريف، كما قال النبي ﷺ:
"من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله" [صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث رقم 2832].
إنها محبة صادقة تدفع المؤمن للتضحية، وتجعله يشتاق للقائه حتى لو لم يره في الدنيا.

ولذلك، فإن المؤمن الصادق يسعى في حياته لأن يجعل حبه للنبي ﷺ واقعًا يُرى في أفعاله وأقواله، فلا يقد م رأيًا على سنته، ولا يتبع هوىً يخالف هديه، ويجعل سيرته منهجًا يقتدي به، ليكون من الذين قال الله فيهم:
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

إن حب الله وحب رسوله ﷺ ليس شعوراً معزولًا عن العمل، بل هو طاعة، وبذل، وصبر، واقتداء، حتى يموت المرء على سنته، ويحشر في زمرته، وينال أعظم نعمة وهي مرافقته في الجنة، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري:

"المرء مع من أحب" [صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6169].

فمن أحب النبي ﷺ بصدق، وسار على نهجه، فليبشر أن يكون معه في الآخرة، وهذا هو الفوز العظيم.

الفصل الثاني: طاعة النبي ﷺ دليل الايمان

الإيمان ليس كلمة تُقال باللسان، ولا شعوراً خفيًا في القلب دون أثر، بل هو تصديق وعمل، وقبول لما جاء به النبي ﷺ في صغير الأمور وكبيرها. وقد جعل الله تعالى طاعة رسوله ﷺ ميزانًا من موازين صدق الإيمان، بل قرنها بطاعته جل جلاله، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 33]،

فهنا جاء الأمر واضحًا صريحًا: طاعة الله لا تنفصل عن طاعة الرسول، ومن خالف أمره فقد عرّض نفسه لخطر إحباط الأعمال.

وقد شدّد الله سبحانه على هذا المعنى في قوله:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80]،

وهذا شرف لم يُعطَ لبشر غيره ﷺ، فطاعته هي عين طاعة الله، لأنه مبلغ عن ربه، لا ينطق عن الهوى، ولا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه.

وقد بيّن النبي ﷺ أن الطاعة ليست انتقائية، نطيع فيما نحب ونعترض فيما نكره، بل هي تسليم كامل لما جاء به، فقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم:

"كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى" [صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، حديث رقم 7280، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم 183].

فالطاعة هنا طريق الجنة، والمعصية طريق الإباء والحرمان.

ولقد فهم الصحابة هذا المعنى بعمق، فجعلوا أوامر النبي ﷺ فوق كل اعتبار، حتى لو خالفت رأيهم أو عاداتهم أو مصالحهم. فعندما أمرهم ﷺ يوم الحديبية أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم، كان الأمر في وقت صعب نفسيًا بعد صلح لم يتوقعوه، لكنهم امتثلوا في النهاية طاعةً لأمره، لأنهم علموا أن أمره لا يأتي إلا بخير.

والطاعة ليست مقصورة على زمنه ﷺ، بل باقية بعد وفاته باتباع سنته، وتحكيم أوامره، والرجوع إلى حديثه عند الخلاف، قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]،

فالقضية ليست في مجرد الطاعة، بل في التسليم الكامل وعدم الاعتراض القلبي على حكمه ﷺ.

وحين يغيب هذا المعنى من القلوب، يصبح الدين مجرد عادات وشعارات، لكن حين يسكن القلب، يتحول إلى حياة كاملة تدور في فلك طاعته ﷺ. ولهذا كان السلف يحرصون على تنفيذ سنته في أدق التفاصيل، حتى في هيئة اللباس والطعام والشراب، لا تعصبًا للأشكال، بل حبًا وطاعةً لمن أمرهم بها.

وقد بشّر النبي ﷺ من يلتزم هذه الطاعة بلقاءه في الجنة، فقال كما رواه البخاري ومسلم:

"إن من أشد الناس حبًا لي ناسًا يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله" [صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث رقم 2832]،

فالطاعة تنبت من الحب، والحب الصادق لا ينفصل عن الاتباع.

إن طاعة النبي ﷺ ليست مجرد واجب ديني، بل هي شرف عظيم، لأنها تجعل العبد يسير على طريق الأنبياء، وتمنحه أمانًا من الضلال، وتوصله إلى محبة الله ورضاه، قال تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7]،

فمن أراد السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، فليجعل طاعته ﷺ نبض حياته، فيفكر قبل كل قول أو فعل: هل يرضى به رسول الله ﷺ؟ فإن وجد الجواب نعم، أقدم، وإن كان لا، أحجم، ليكون من أهل الإيمان الصادق.

الفصل الثالث: منزلة النبي ﷺ عند ربه

من أعظم دلائل محبة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن رفع قدره، وشرّفه فوق جميع الخلق، وأكرمه بما لم يُعطَ لأحد سواه، وجعل ذكره مقرونًا بذكره في الأذان والصلاة، وفي شهادتي الدخول في الإسلام، وفي قلوب المؤمنين في كل زمان ومكان.

لقد اصطفى الله نبيه ﷺ من بين البشر جميعًا، فجعله خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وأعطاه الرسالة الخاتمة التي لا يأتي بعدها وحي، قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75]،

ومن هؤلاء المصطفين كان محمد ﷺ الذي جمع الله له صفات الكمال البشري والخلق العظيم، حتى أثنى عليه في كتابه الكريم فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]،

وهذا الثناء من رب العالمين شهادة لا تضاهيها شهادة، ووسام لا يمنحه إلا من خلق الإنسان وأعلم بخفاياه.

ومن مظاهر علو منزلته عند الله أن الله أقسم بحياته، وهذا لم يأتِ في القرآن إلا له، قال سبحانه:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72]،

وهذا القسم من الله تعالى بحياة نبيه دلالة على عظم شأنه ورفعة قدره عند خالقه.

ومن كراماته أيضًا أن الله سبحانه لم يخاطبه باسمه المجرد كما فعل مع بقية الأنبياء، بل كان يناديه بأوصاف التشريف والتكريم مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، في حين خاطب غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿يَا آدَمُ﴾ و ﴿يَا نُوحُ﴾ و ﴿يَا مُوسَى﴾، وهذا من تمام الأدب الإلهي مع حبيبه ﷺ.

ومن أعظم منازل الشرف التي أعطاها الله لنبيه ﷺ، أنه رفع ذكره في العالمين، فقال:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]،

قال المفسرون: لا يُذكر الله في أذان أو صلاة أو خطبة إلا ذُكر معه اسم محمد ﷺ، وهذه منة باقية إلى يوم القيامة، فلا يخلو وقت على وجه الأرض إلا واسم النبي ﷺ يذكر فيه مقرونًا باسم الله جل جلاله.

وقد خصه الله تعالى بالمقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة حين يفزع الناس إليه، فيسجد بين يدي ربه، فيفتح الله عليه بمحامد لم يفتحها على أحد قبله، ثم يأذن له بالشفاعة، كما جاء في الحديث الطويل الذي رواه البخاري ومسلم، وفيه قوله ﷺ:

"فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة" [صحيح البخاري، كتاب التوحيد، حديث رقم 7510، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 194].

ومن كمال شرفه أن الله أقسم بالبلد الذي عاش فيه ﷺ، فقال:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1-2]،

فكان وجوده في مكة سببًا لزيادة شرفها وعلو مكانتها.

ومن عظيم منزلته أيضًا أن الله تعالى أمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وجعل ذلك عبادة تُرفع بها الدرجات وتكفّر بها السيئات، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]،

وهذه الآية وحدها تكفي لتبيّن لنا كيف رفع الله ذكره، فجعل ملائكته يصلون عليه، وأمر عباده أن يفعلوا مثلهم.

إن منزلة النبي ﷺ عند ربه ليست فقط في التشريف والتكريم، بل في العصمة من الضلال، وفي النصر والتأييد، وفي جعله رحمة للعالمين، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]،

فهو ﷺ رحمة في الدنيا والآخرة، رحمة في هديه وخلقه، ورحمة في شفاعته ومقامه.

ومن عرف هذه المنزلة العظيمة، أدرك أن طاعة النبي ﷺ واتباعه ليست خيارًا يُؤخذ أو يُترك، بل هي شرف ونجاة، وأن محبته ليست مجرد عاطفة، بل إيمان وعبادة، وأن الاقتداء به سبيل للفوز برضا الله والجنة.

الفصل الرابع: محبة الصحابة له ﷺ

حين نقرأ في سيرة الصحابة رضوان الله عليهم، نجد أن محبتهم للنبي ﷺ لم تكن كلمات يرددونها أو شعارات يرفعونها، بل كانت حياة كاملة مبنية على التضحية والطاعة والفداء، حتى صار النبي ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وكل ما يملكون.

لقد تعلّم الصحابة أن حب الرسول ﷺ جزء من الإيمان، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين" [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 15]،

فلم يكتفوا بسماع هذا الحديث، بل جعلوه واقعًا عمليًا في حياتهم.

انظر إلى موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقد روي عنه أنه كان يسير في طريق، فرآه مائلًا، فسأل: "لماذا عدلت عن الطريق؟"، فقال: "إني رأيت رسول الله ﷺ يسير من هنا، فأحببت أن أسير في موضع مشيه"، حتى هذا الموقف البسيط كان عندهم تعبيرًا عن المحبة والاقتداء.

وفي غزوة أحد، حين انتشر الخبر الكاذب أن النبي ﷺ قد قُتل، أصاب الحزن والذهول قلوب الصحابة حتى شُلَّت حركتهم، فلما تبيّن لهم أنه حي، عادوا يقاتلون بشراسة أعظم مما كانوا عليه، وكل همّهم أن يحموا رسول الله ﷺ بأجسادهم، ومن أعظم المواقف يومها ما فعله طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، حين جعل جسده درعًا للنبي ﷺ، حتى أصيب بيده إصابات شديدة، ومع ذلك لم يتحرك من مكانه حتى انتهت المعركة، فقال عنه النبي ﷺ بعدها: "من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض، فلينظر إلى طلحة" [رواه الحاكم وصححه].

وكان الصحابي أبو بكر الصديق رضي الله عنه مثالًا للحب الذي يتجاوز حدود النفس، ففي الهجرة حين كان يسير مع النبي ﷺ، كان تارة يمشي أمامه وتارة خلفه، فسأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال: "أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك"، وفي الغار حين دخل قبله ليتأكد من خلوه من الأذى، سدَّ الثقوب بثوبه، حتى بقي ثقب واحد وضع فيه رجله، فلُدغ، لكنه صبر ولم يتحرك حتى لا يوقظ النبي ﷺ من نومه، خوفًا عليه.

ومن شدة حبهم له ﷺ، كانوا يرون أن الماء الذي يتوضأ به أو الشعر الذي يسقط منه أو العرق الذي يخرج من جسده بركة، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يدخل على أم سليم، فتبسط له نطعًا فيقيل عندها، فكانت تأخذ من عرقه وتجعله في طيبها" [صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 2330]، فهذا العرق عندهم ليس كسائر العرق، بل هو طيب مبارك.

ولم يكن حبهم له محصورًا في أيام قوته، بل حتى في أشد لحظات الألم، فعندما اشتد عليه المرض في آخر أيامه، كان الصحابة يصلّون خلفه متأثرين لبكائه وضعفه، وكانوا يتمنون لو أنهم يحملون عنه الألم كما كانوا يحملون عنه الخطر في المعارك.

هذا الحب العظيم جعلهم أصدق أمة في اتباع نبيها، وأوفى قوم في الدفاع عنه، حتى قال فيهم النبي ﷺ:

"أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" [صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم 2533]،

فهم المثال الحي للمحبة التي تُترجم إلى عمل، والمحبة التي تغيّر حياة صاحبها إلى الأبد.

الفصل الخامس: أثر محبة النبي ﷺ في قلب المسلم

محبة النبي ﷺ ليست شعورًا عابرًا يمر بالقلب، ولا عاطفة مؤقتة تظهر في المناسبات وتختفي بعدها، بل هي نور يملأ القلب، ويهدي الجوارح، ويغيّر حياة المسلم تغييرًا كاملًا في العبادة والمعاملة والأخلاق.

فمن أحب رسول الله ﷺ بصدق، وجد أن قلبه يشتاق إلى سنته، ولسانه يكثر من الصلاة عليه، وعمله يتجه تلقائيًا إلى ما يرضيه، لأن المحبة الصادقة تدفع صاحبها إلى الاتباع، كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]،

وهذه الآية تجعل المحبة عملًا قبل أن تكون قولًا، وتجعلها بابًا إلى محبة الله ومغفرته.

إن أثر المحبة يظهر أول ما يظهر في العبادة، فالمحب للنبي ﷺ يجد في صلاته خشوعًا أكبر حين يتذكر كيف كان حبيبه يقوم بين يدي ربه حتى تتورم قدماه، ويجد في صيامه لذة أعظم حين يتذكر حرصه على صوم النوافل، ويجد في ذكره لله حلاوة حين يعلم أن لسان النبي ﷺ كان لا يفتر عن الذكر.

ويظهر الأثر أيضًا في المعاملة مع الناس، فالمحب لا يمكن أن يتعامل بفظاظة أو ظلم، لأنه يعلم أن نبيه ﷺ كان أرحم الناس، وأصدقهم، وأحلمهم، حتى مع أعدائه. فمن أحب النبي ﷺ اقتدى بابتسامته، وعفوه، وتواضعه، وأمانته، وصار مرآة لأخلاقه بين الناس.

ومن أعظم آثار المحبة الصادقة أنها تمنح القلب طمأنينة وثباتًا، فالمحب إذا أصابته مصيبة تذكر صبر النبي ﷺ على فقد أحبته، وإذا ضاق به الحال تذكر زهده ورضاه بالقليل، وإذا شعر بالوحدة تذكر أنه ﷺ عاش غريبًا بين قومه حتى نصره الله.

كما أن المحبة الحقيقية تجعل المسلم يشتاق للقائه في الآخرة، ويعمل لهذا اللقاء، لأنه يصدق وعد النبي ﷺ:

"المرء مع من أحب" [صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6169]،

وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: المرء مع من أحب"، قال أنس: "فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم".

وهذا الأثر ليس نظريًا، بل هو قوة دافعة تغيّر حياة المسلم بالكامل، فتجعله ينظر إلى الدنيا على أنها طريق قصير إلى لقاء الحبيب ﷺ، وتجعله يستحي أن يلقاه يوم القيامة وقد خالف هديه أو أهمل سنته.

إن القلب الذي يملأه حب النبي ﷺ يصبح قلبًا حيًّا، يكره المعصية لأنه لا يريد أن يسيء أمام وجه حبيبه يوم العرض الأكبر، ويحب الطاعة لأنها تقربه منه خطوة بخطوة، حتى يلقى الله وهو على سنته، فيكون من أهل شفاعته ومجلسه في الجنة.

ولهذا فإن من أعظم ما يمكن للمسلم أن يدعو به: "اللهم ارزقني حبك، وحب نبيك، وحب كل عمل يقربني إلى حبك"، كما كان يدعو النبي ﷺ، لأن هذا الحب هو الجسر الذي يربط بين الدنيا والآخرة، ويجعل حياة المؤمن كلها في رحاب الحبيب ﷺ.

الباب الثاني: النبي ﷺ في تعامله مع الناس

الفصل الأول: رحمته بالصغير والكبير

الرحمة كانت طابع حياة النبي ﷺ، ليست رحمة انتقائية أو لحظية، بل رحمة شاملة امتدت للصغير والكبير، للمؤمن وغير المؤمن، للإنسان والحيوان، حتى قال الله عنه في وصفه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]،

فكلمة "للعالمين" شملت كل شيء، ولم تحصر رحمته في فئة أو قوم دون آخرين.

لقد كانت رحمته ﷺ بالصغار مدهشة، فهو القائد الذي تُهابه الملوك، ومع ذلك ينزل إلى مستوى الطفل فيحادثه، ويمازحه، ويدعو له، ويأخذه في حجره، ويشارك لعبه. يروي أنس بن مالك رضي الله عنه، الذي خدم النبي ﷺ عشر سنوات، فيقول: "كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فيسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم" [صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 2316].

وهذا المسح على الرأس ليس حركة عابرة، بل رسالة حب وحنان، تترك في قلب الطفل أثرًا يدوم العمر كله.

وكان ﷺ يخفف الصلاة إذا سمع بكاء طفل، رحمة بأمه، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

"إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه" [صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم 707، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم 470].

فهنا نرى أن رحمته بالصغير وصلت إلى حد مراعاة شعور الأم في عبادته لله.

ولم تكن رحمته بالصغار مقتصرة على من هم في بيته أو أصحابه، بل شملت حتى الأطفال الغرباء، وحتى أبناء غير المسلمين. فقد روي أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبي ﷺ، فمرض، فزاره النبي ﷺ، وجلس عند رأسه، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم الغلام، ثم مات، فقال النبي ﷺ: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار" [صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث رقم 1356]، وهذه الرحمة امتدت إلى روحه ومصيره الأبدي.

أما رحمته بالكبار، فكانت مزيجًا من الاحترام والتقدير والرأفة. فقد كان ﷺ يوقر كبار السن، ويجلسهم في صدر المجلس، ويستمع إليهم بصبر. قال ﷺ:

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا" [سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث رقم 1921، حديث حسن صحيح].

وهذا الحديث جعل الرحمة واحترام الكبير مقياسًا لتمام الإيمان والانتماء لهذه الأمة.

وكان ﷺ يتألم لألم المسنين، ويراعي ضعفهم، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة" [صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم 703، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم 467]،

فهنا نرى أن القائد الأعظم كان يضع في اعتباره كبار السن والمحتاجين عند أداء العبادة، حتى لا يشق عليهم.

إن رحمته بالصغير والكبير لم تكن مجرد تصرفات منفصلة، بل كانت منهج حياة، تعلم منه الصحابة أن القيادة الحقيقية ليست بالقوة فقط، بل بالرحمة التي تجذب القلوب قبل أن تحكم الأجساد.

وحين يعيش المسلم هذا الخلق النبوي، يجد أن الرحمة ليست ضعفًا، بل هي قوة تُكسبه احترام الصغير، وحب الكبير، ورضا الله قبل كل شيء، لأنه يقتدي بمن قال الله عنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

الفصل الثاني: تواضعه مع الفقراء والأغنياء

كان رسول الله ﷺ على عظمة مكانته، وهيبته التي تهابتها القلوب، أكثر الناس تواضعًا، لا يميّز في المعاملة بين فقير أو غني، ولا يرفع أحدًا على أحد إلا بالتقوى، عملًا بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]،

فلم يكن المنصب أو المال أو النسب معياراً عنده، بل كان القلب النقي والعمل الصالح هما المقياسان الحقيقيان.

لقد عاش ﷺ بين أصحابه كواحد منهم، يأكل مما يأكلون، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، فلا كرسي مخصص ولا موضع مفروش، حتى إن الداخل على مجلسه لم يكن يعرفه من بين أصحابه إلا بسؤال، من شدة اندماجه بينهم. روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدي إلي ذراع لقبلت" [سنن أبي داود، كتاب الأطعمة، حديث رقم 3755، حديث صحيح]،

وهذا الكراع هو أقل أجزاء الذبيحة قيمة، لكنه ﷺ قبل الدعوة إليه، ليعلّم الناس أن قيمة اللقاء ليست في الطعام بل في القلوب.

وكان ﷺ يجلس مع الفقراء والمساكين بلا حرج، بل كان يأنس بهم ويجلس بينهم، حتى لُقّب بـ"نبي المساكين"، كما جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت" [صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6072]،

والأمة هنا هي الخادمة، وهذا التصرف منه ﷺ تواضع ما بعده تواضع، إذ يسمح لخادمة أن تأخذ بيده وتذهب به لقضاء حاجتها، وهو القائد الأعظم للأمة.

أما الأغنياء، فلم يكن ﷺ يمنع نفسه من مجالستهم أو التعامل معهم، لكنه كان يذكرهم دائمًا بحق الفقراء، ويحرص على ألا ينشأ في قلبهم كِبر أو استعلاء. فقد كان إذا جلس مع الغني، ذكّره بالآخرة، وإذا جلس مع الفقير، رفع من شأنه، حتى يذوب الفارق النفسي بينهما. ولعل أروع مثال على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن رجلاً مر على النبي ﷺ، فسأله أحد الصحابة عن رأيه فيه، فقال: "هذا حري إن خطب أن يزوج، وإن شفع أن يشفع"، ثم مر رجل من فقراء المسلمين، فقال: "هذا حري إن خطب ألا يزوج، وإن شفع ألا يشفع"، فقال النبي ﷺ: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا" [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، حديث رقم 2622]،

ليعلم الأمة أن قيمة الإنسان ليست في ماله، بل في إيمانه وتقواه.

وكان ﷺ يرفض أي مظاهر تمييز، حتى في أبسط الأمور. فعندما جاءه رجل يرتجف هيبةً منه، قال له ﷺ: "هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد" [سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة، حديث رقم 3312، حديث صحيح]،

فبهذا الجواب كسر حاجز الرهبة، وأعاد المعنى الحقيقي للقيادة: البساطة والقرب من الناس.

إن تواضعه ﷺ لم يكن تصرفًا وقتيًا، بل كان منهج حياة، حتى شهد أعداؤه قبل أصحابه أنه لا يستعلي على أحد. وكان يعلّم الأمة أن التواضع يرفع صاحبه، كما قال ﷺ: "ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، حديث رقم 2588].

وحين يعيش المسلم هذا الخلق النبوي، يتعلم أن التواضع ليس ضعفًا، بل هو قمة القوة، لأنك حين تخفض جناحك للناس، تكسب قلوبهم، وحين تبتعد عن الكِبر، يرفعك الله في الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث: حلمه وصبره على الأذى

كان رسول الله ﷺ جبلًا من الصبر، لا تهزه العواصف، ولا تزعزع ثباته كلمات الأذى أو أفعال الخصوم. فقد أرسله الله رحمةً للعالمين، كما قال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]،

ومن رحمته تلك أنه كان يحلم على من أساء، ويصبر على من أذى، لعلهم يرجعون للحق.

لقد واجه ﷺ صنوفًا من الأذى في مكة والمدينة، من الاستهزاء والسخرية، إلى الحصار والطرد، وحتى محاولات القتل، ومع ذلك، لم يخرج منه إلا قول الخير والدعاء بالهداية. حينما جاءه ملك الجبال يوم الطائف بعدما آذاه القوم، وعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين، قال ﷺ:

"بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا" [صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم 3231].

هكذا كان ينظر، لا بعين الانتقام، بل بعين الإصلاح.

وكان حلمه ﷺ يمتد حتى في المواقف الفردية. فقد روى البخاري ومسلم أن أعرابيًا جاء فجبذ برداء النبي ﷺ جبذة شديدة أثرت في عنقه، ثم قال: "أعطني من مال الله الذي عندك"، فالتفت إليه النبي ﷺ مبتسمًا، وأمر له بعطاء [صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 1466].

فأي قلب هذا الذي يتحمل قسوة الفعل، ويقابلها بالعطاء؟

كما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يسير، فجاءه رجل فأمسكه بشدة، وقال له: "إنك لا تحمل لي ولا لأهلي شيئًا من مالك، إنما هو مال الله"، فلم يغضب، بل ضحك وأمر بإعطائه [صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم 1057].

هذا الموقف يعلّمنا أن القائد الحق هو من يملك نفسه عند الغضب، ويحوّل الموقف السلبي إلى فرصة للعطاء.

وقد شهد له أعداؤه قبل أصحابه بهذا الخلق، ففي صلح الحديبية، رغم استفزازات المشركين، ظل ﷺ ثابتًا، صابرًا، حتى كتب الله الصلح الذي كان سببًا في فتح مكة لاحقًا. وقد جسّد في هذا الصلح قول الله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

ولم يكن حلمه وصبره ضعفًا، بل كان قوةً داخلية هائلة، لأن الصبر على الأذى يحتاج قلبًا أكبر من الأذى نفسه. وقد قال ﷺ:

"ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6114].

ومن عاشر هذا الخلق النبوي، أدرك أن الصبر والحلم ليسا مجرد أخلاق، بل هما سلاحان يبنيان القلوب، ويجعلانك تكسب احترام الناس حتى ولو كانوا خصومك.

الفصل الرابع: وفاؤه بالعهد وحفظه للأمانة

كان رسول الله ﷺ مضرب المثل في الوفاء بالعهود، لا يفرط في كلمة قالها، ولا يخون أمانة وُضعت بين يديه، سواء كانت من مسلم أو كافر. فقد ربّاه الله على ذلك منذ صغره، حتى لُقّب قبل بعثته بـ"الصادق الأمين".

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]،

فجعل الوفاء بالعهد أمرًا ربانيًا يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، وكان ﷺ أول الملتزمين به.

ومن أعجب المواقف في وفائه ﷺ ما حدث في مكة قبل الهجرة، حين كان أهل مكة يؤذونه ويكيدون له، ومع ذلك كانوا يضعون ودائعهم وأموالهم عنده لثقته وأمانته. فلما هاجر إلى المدينة، لم يترك تلك الأمانات، بل أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يردها إلى أصحابها، رغم أنهم أعداؤه الذين أخرجوه من بلده. وهذا الموقف وحده يكفي لنعلم أن الأمانة ليست مرتبطة بحب أو بغض، بل بالحق الذي لا يتغير.

وفي صلح الحديبية، ضرب ﷺ أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد. كان من بنود الصلح أن من جاء من قريش إلى المسلمين بغير إذن وليه رُدّ إليهم، حتى وإن كان مسلمًا. فجاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مسلمًا، وهو مقيد بالسلاسل، يستغيث بالمسلمين، وكان قلب الصحابة يغلي حزنًا، لكن النبي ﷺ قال:

"يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا" [رواه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد صحيح].

لم ينقض العهد رغم الموقف المؤلم، لأن الحفاظ على الكلمة عنده أهم من المكاسب اللحظية.

أما في المدينة، فقد عاش ﷺ بين اليهود والمنافقين، وكانت بينه وبينهم عهود ومواثيق، فما نقض منها شيئًا أبدًا إلا إذا بدأ الطرف الآخر بالنقض. وهذا تطبيق عملي لقول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

وحفظه ﷺ للأمانة لم يكن فقط في الأموال أو العهود، بل حتى في أسرار الناس وأعراضهم. روى أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

"إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة" [سنن أبي داود، كتاب الأدب، حديث رقم 4868]،

أي أن الأمانة تشمل حفظ كلام الناس إذا كان في طي السر.

هذا الخلق النبوي يعلّمنا أن الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة ليسا أمرين ثانويين في الإسلام، بل هما أساس الثقة بين الناس، وميزان الإيمان، كما قال ﷺ:

"لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" [رواه أحمد، حديث رقم 12565، بإسناد حسن].

الفصل الخامس: تواضعه مع الصغير والكبير

كان رسول الله ﷺ قمةً في التواضع، لا يرفع نفسه فوق أحد، ولا يرى لنفسه منزلة تمنعه من الجلوس مع الفقراء أو الحديث مع الصغار أو مشاركة الناس همومهم. لقد علّمنا ﷺ أن العظمة الحقيقية ليست في الكبر أو التعالي، بل في التواضع الذي يزيد صاحبه رفعة عند الله وخلقه.

قال الله تعالى في كتابه الكريم واصفًا المؤمنين:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]،

ورسول الله ﷺ كان المثل الأعلى لهذه الآية، فقد عاش بين الناس بلا تكلف، يخالطهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، لا يختار لنفسه صدر المجلس إلا إذا دُعي إليه.

ومن مواقفه ﷺ مع الصغار، ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حين قال:

"كان رسول الله ﷺ يزورنا، فأخذ أخي الصغير -وكان يُقال له أبو عمير- عصفورًا يلعب به فمات، فكان النبي ﷺ يمازحه ويقول: يا أبا عمير ما فعل النغير؟" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6203].

في هذا الموقف نرى كيف يدخل ﷺ السرور على قلب طفل صغير، ويهتم بمشاعره رغم انشغاله بأعباء النبوة.

أما مع الكبار، فكان يكرمهم ويحترمهم، ويعطي كل ذي حق حقه. قال ﷺ:

"ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه" [رواه أحمد، حديث رقم 6669، بإسناد حسن].

وكان إذا جاءه كبير في السن، بسط له ثوبه ليجلس عليه، أو قدّم له المكان، أو أسرع لقضاء حاجته.

ومن تواضعه أيضًا أنه كان يخدم نفسه في بيته، كما روى عائشة رضي الله عنها:

"كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6039].

فهو ﷺ لم يرَ أن خدمة البيت أو مساعدة الزوجة تنقص من مكانة الرجل، بل كانت عنده من مكارم الأخلاق.

بل حتى مع العبيد والخدم، كان يعاملهم وكأنهم إخوة، لا يتكبر عليهم ولا يرفع نفسه فوقهم. فقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه خدم النبي ﷺ عشر سنين، فما قال له قط "أف" ولا "لم فعلت كذا" ولا "هلا فعلت كذا". [سنن أبي داود، كتاب الأدب، حديث رقم 4774].

وهكذا كان ﷺ متواضعًا مع الصغير والكبير، مع القوي والضعيف، مع الغني والفقير، يعلمنا أن التواضع لا ينقص من قدر الإنسان، بل يرفعه، كما قال ﷺ:

"وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" [رواه مسلم، كتاب البر والصلة، حديث رقم 2588].

الباب الثالث: النبي ﷺ في عبادته وحياته مع ربه

الفصل الأول: حبه للصلاة وخشوعه فيها

كانت الصلاة عند رسول الله ﷺ ليست مجرد فرض يؤديه، بل كانت روحه التي يحيا بها، وراحته التي يلجأ إليها إذا ضاقت الدنيا بما رحبت. كان ﷺ يقول:

"وجعلت قرة عيني في الصلاة" [رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، حديث رقم 3940، وصححه الألباني].

هذا التعبير العميق يكشف لنا أن الصلاة بالنسبة له لم تكن عبئًا، بل كانت أجمل ما في حياته، وأعظم ما يسكن قلبه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]،

ورسول الله ﷺ كان يحقق هذه الآية في كل صلاة، فهي بالنسبة له ذكرٌ كامل لله، وخشوعٌ في الجوارح والقلب والعقل.

وكان ﷺ إذا دخل في الصلاة، خشع قلبه، واطمأن بدنه، وسكنت جوارحه، حتى إن الصحابة كانوا يسمعون لصدره أزيزًا من البكاء وهو يقرأ القرآن في الليل. روى عبد الله بن الشخير رضي الله عنه:

"أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء" [رواه أبو داود، كتاب الصلاة، حديث رقم 904].

إنها صورة نادرة للإخلاص والخشوع، حيث كان يبكي حبًا لله، وخوفًا منه، ورغبة في رضاه.

وكان ﷺ يحب أن يطيل الصلاة إذا صلى لنفسه، حتى تورمت قدماه من كثرة القيام، كما روت عائشة رضي الله عنها:

"كان رسول الله ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه، فقيل له: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟" [رواه البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم 1130].

هنا نتعلم أن العبادة ليست فقط لطلب المغفرة، بل هي شكر لله على نعمه التي لا تُحصى.

وكان إذا حان وقت الصلاة، تغيّر وجهه ﷺ وكأنه لا يعرف أحداً من شدة حضوره مع الله، ويقول لبلال رضي الله عنه:

"يا بلال، أرحنا بالصلاة" [رواه أبو داود، كتاب الأدب، حديث رقم 4985، وصححه الألباني].

فهو لا يبحث عن الراحة في النوم أو الطعام، بل يجدها في مناجاة ربه.

حتى في أشد المواقف حرجاً وخطراً، لم يترك الصلاة. ففي غزوة الخندق، حين اشتد القتال، أخّر صلاة العصر عن وقتها، فلما قضى المعركة قال:

"شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً" [رواه مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم 627].

بهذا نرى أن الصلاة كانت في قلبه فوق كل شيء.

ولم يكن ﷺ يكتفي بأداء الصلاة بنفسه، بل كان يعلّمها للصحابة عملياً، ويحرص على أن يصلوا بخشوع، ويقول:

"صلوا كما رأيتموني أصلي" [رواه البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم 631].

الصلاة في حياته ﷺ كانت حياة للقلب، وغذاء للروح، وراحة للنفس، وهي السبب الأكبر في ثباته وصبره أمام المصاعب. ونحن إذا أردنا أن نحب الله حقًا، فعلينا أن نحب الصلاة كما أحبها نبينا ﷺ، وأن نخشع فيها كما خشع، حتى تصبح لنا قرة عين كما كانت له.

الفصل الثاني: ذكره لله في الليل والنهار

كان قلب رسول الله ﷺ حيًا بذكر الله في كل لحظة، لا يغفل عن ربه في سفر أو حضر، في سراء أو ضراء. كان ذكر الله بالنسبة له غذاءً للروح، كما يحتاج الجسد إلى الطعام والماء.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]،

ورسول الله ﷺ كان أعظم من جسّد هذه الآية، فكان قلبه مطمئنًا بذكر الله في الليل والنهار، حتى صار لسانه لا يفتر عن التسبيح والتحميد والتهليل.

تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول:

"كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه" [رواه مسلم، كتاب الحيض، حديث رقم 373].

لم يكن الذكر بالنسبة له وقتًا محدداً بعد الصلاة أو قبل النوم، بل كان أسلوب حياة، يرافقه في مشيه وجلوسه وقيامه، بل حتى وهو بين أصحابه أو في ميادين القتال.

وفي كل صباح كان ﷺ يبدأ يومه بذكر الله، فيقول بعد الفجر:

"اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور" [رواه أبو داود، كتاب الأدب، حديث رقم 5068، وصححه الألباني].

وبهذا الدعاء كان يربط حياته كلها بالله، ويستشعر أن يومه لا يبدأ إلا باسمه، ولا ينتهي إلا بحمده.

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه ليلاً، ينام على ذكر الله، فيجمع كفيه وينفث فيهما ويقرأ: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما جسده ثلاث مرات [رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، حديث رقم 5017].

هكذا كان يسلم نفسه لله قبل أن يغفو، وكأن الذكر هو آخر ما يودع به الدنيا كل ليلة.

وكان إذا حدث له أمر يفرحه، قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: "الحمد لله على كل حال" [رواه ابن ماجه، كتاب الدعاء، حديث رقم 3803، وحسنه الألباني].

فهو في الرخاء يشكر، وفي الشدة يصبر ويذكر، لتبقى علاقته بالله ثابتة لا تتغير بتغير الظروف.

حتى إذا كان يمشي في الطرقات أو يسير في الصحراء، كان يسبح الله ويستغفره، كما روت أم سلمة رضي الله عنها:

"كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيتي رفع طرفه إلى السماء فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي" [رواه أبو داود، كتاب الأدب، حديث رقم 5094، وصححه الألباني].

كان ﷺ يعلم أن الذكر حصن للقلب من الغفلة، وأنه سبب للسكينة والبركة، لذلك أمر به أصحابه كثيرًا، وقال:

"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" [رواه البخاري، كتاب الدعوات، حديث رقم 6407].

لقد كان ﷺ يعيش مع الله في كل لحظة، ولسانه وقلبه ممتلئان بالذكر، حتى صار الذكر هو أنفاسه الروحية. ومن أراد أن يقتدي به، فعليه أن يجعل ذكر الله رفيقه الدائم، لا يتركه إلا إذا انشغل بفرض أو عمل واجب، ثم يعود إليه كما يعود العطشان إلى الماء البارد.

الفصل الثالث: دعاؤه وتضرعه لربه

كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه إلى السماء بالدعاء، رفع معهما قلبًا خاشعًا ودمعًا صادقًا، يعلم أن باب الله لا يُغلق، وأن رب العالمين قريبٌ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، كما قال سبحانه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

لم يكن ﷺ يدعو دعاءً جافًا أو كلمات تحفظ بلا إحساس، بل كان يناجي ربه من أعماق قلبه، في السراء يشكره، وفي الضراء يتضرع إليه، وفي كل حال يستشعر أنه عبد بين يدي مولاه.

تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قيامه بالليل فتقول:

"كان إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" [رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، حديث رقم 770].

فهكذا كان يبدأ مناجاته بسؤال الهداية قبل أي شيء آخر.

وكان ﷺ يعلّم أصحابه أن الدعاء عبادة، كما قال:

"الدعاء هو العبادة" [رواه الترمذي، كتاب الدعوات، حديث رقم 2969، وصححه الألباني].

لذلك كان يكثر منه في كل وقت، في السفر والحضر، قبل النوم وبعد الاستيقاظ، قبل الطعام وبعده، حتى صار الدعاء جزءًا من حياته اليومية.

وكان إذا أصابته الشدة، لجأ إلى الدعاء بتذلل، كما في يوم بدر، حيث رفع يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وهو يقول:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض" [رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم 1763].

مشهد يهز القلب، إذ ترى قائد الأمة وأشرف الخلق يبكي ويتوسل، لا يعتمد على عدده ولا قوته، بل على ربّه وحده.

وكان ﷺ يُكثر من الدعاء بالمغفرة والرحمة، كما كان يقول في سجوده:

"اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره" [رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، حديث رقم 483].

فهو مع عصمته من الذنوب، يعلّمنا ألا نغتر، وأن نلجأ إلى الله دومًا.

بل كان يختار من الدعاء أجمعه وأنفعه، كما في دعائه:

"اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار" [رواه البخاري، كتاب الدعوات، حديث رقم 6389، ومسلم حديث رقم 2688].

دعاء قصير، لكنه يشمل خير الدنيا والآخرة.

وكان يدعو لأمته كثيرًا، حتى بكى ليلة وهو يقول:

"اللهم أمتي أمتي"، فأرسل الله جبريل إليه يسأله عن سبب بكائه، فأخبره، فقال الله تعالى: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك [رواه مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم 202].

إن الذي يتأمل دعاء النبي ﷺ يجد أنه مدرسة في الأدب مع الله، في صدق الطلب، وفي الجمع بين الخوف والرجاء. وإذا أردنا أن نقتدي به، فعلينا أن نحيا بالدعاء كما كان يحيا به، لا نتركه حتى في أبسط أمورنا، ولا نستحي من رفع أكفنا لرب رحيم كريم.

الفصل الرابع: خشيته وبكاؤه من خشية الله

كان قلب رسول الله ﷺ أنقى من اللؤلؤ، وألين من الحرير، ومع ذلك كان أشد الناس خشية لربه، امتثالًا لقوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]،

وكان هو ﷺ أعلم الخلق بالله، فكانت خشيته له أعظم من أي أحد.

قال ﷺ: "أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له" [رواه البخاري، كتاب النكاح، حديث رقم 5063، ومسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 1401].

فهو لا يتحدث عن نفسه افتخارًا، بل ليعلّمنا أن الخوف من الله يزيد بزيادة المعرفة به.

كانت عائشة رضي الله عنها تقول:

"كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه" [رواه أحمد في المسند، حديث رقم 25558 وصححه الألباني]،

فإذا قام بين يدي الله انقطع عن الدنيا كلها، وأقبل بكليته على مولاه، وجعل الدمع ينحدر على وجنتيه.

وفي ليلة من الليالي، قام النبي ﷺ يصلي، فقرأ قول الله تعالى:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]،

فلم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح [رواه النسائي في السنن الكبرى، حديث رقم 11386 وصححه الألباني].

وكان بكاؤه ﷺ ليس بكاء تصنّع، بل بكاء يقشعر منه الجلد، يخرج من قلب ممتلئ حبًا وخشيةً لربه، حتى إن الصحابة كانوا يسمعون لصدره أزيزًا كأزيز المرجل من البكاء في الصلاة [رواه أبو داود، كتاب الصلاة، حديث رقم 904 وصححه الألباني].

وكانت خشيته تظهر حتى في دعائه، فقد كان يقول:

"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك" [رواه الترمذي، كتاب الدعوات، حديث رقم 3502، وحسنه الألباني].

فهو لا يكتفي بالبكاء، بل يسأل ربه أن يجعل الخشية درعًا تحميه من الذنب.

ومن شدة خشيته، كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فلما سألته عائشة رضي الله عنها: لم تصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال:

"أفلا أكون عبداً شكوراً" [رواه البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم 1130، ومسلم حديث رقم 2819].

إن بكاءه ﷺ لم يكن ضعفًا، بل كان قوة في الإيمان، ورسالة لنا أن القلب الحي هو الذي يخشع إذا ذُكر الله، وتدمع عينه حبًا له وخوفًا منه، كما قال تعالى:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109].

الفصل الخامس: زهده وتواضعه رغم علو قدره

كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم بلا فخر، وأحب الخلق إلى الله، ولو شاء لجعل الله له قصوراً من ذهب وحدائق من جنة الأرض، ولكن قلبه اختار طريقًا آخر، طريق الزهد والتواضع، امتثالًا لأمر ربه في قوله:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131].

روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ فوجده مضطجعًا على حصير قد أثر في جنبه، وليس في بيته إلا قليل من الشعير معلق، فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ:

"أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة" [رواه البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم 4913].

لم يكن زهده حرمانًا، بل اختيارًا واعيًا، فقد عرض عليه ربه أن يكون ملكًا نبيًا، أو عبدًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا، تواضعًا لربه وخشية أن تفتنه الدنيا [رواه أحمد في المسند، حديث رقم 17434 وصححه الألباني].

كان ﷺ يرقع ثوبه بيده، ويخصف نعله، ويجلس بين أصحابه كأحدهم، حتى إذا دخل رجل المسجد وهو لا يعرفه قال: "أيكم محمد؟" [رواه البخاري، كتاب الاستئذان، حديث رقم 63]، فما كان يتميز عليهم في لباس أو مجلس.

ولم يكن في بيته طعام يكفي ثلاثة أيام متتابعة، لا من فقر، ولكن لأن قلبه كان معلقًا بالله، كما قالت عائشة رضي الله عنها:

"لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز الشعير يومين متتابعين" [رواه مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم 2970].

بل إن فراشه كان أحيانًا جلدًا حشوه ليف، وأحيانًا حصيرًا ينام عليه حتى يؤثر في جنبه، وهو الذي لو شاء لنام على الحرير والديباج، ولكنه قال:

"مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها" [رواه الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم 2377 وصححه الألباني].

وكان تواضعه يبلغ أنه يقبل دعوة المساكين، ويأكل معهم على الأرض، ويقول:

"آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد" [رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، حديث رقم 3251 وصححه الألباني].

لقد جمع ﷺ بين أعظم شرف في الوجود وأقصى درجات التواضع، وبين القدرة على أن يملك الدنيا وبين الإعراض عنها، ليكون قدوة للأمة في أن العظمة الحقيقية ليست في الزينة والمال، وإنما في طهارة القلب، وحسن القصد، وخدمة الخلق، وصدق التوجه إلى الله.

الباب الرابع: النبي ﷺ في تعامله مع البشر

الفصل الأول: رحمته بالصغار والضعفاء

من أعظم ما ميَّز رسول الله ﷺ تلك الرحمة التي وسعت قلبه، فلم تقتصر على أصحابه الأقوياء أو الكبار في السن، بل امتدت لتغمر الصغار والضعفاء حتى شعر كل من حوله بالأمان والسكينة في قربه، وكأن قلبه كان حضنًا رحبًا لكل محتاج للعطف.

وقد قال الله تعالى في وصفه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

كان ﷺ إذا مرَّ على الأطفال سلَّم عليهم، وربما حمل بعضهم بين يديه، ويمسح على رؤوسهم بحنان الأب الشفيق. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

"كان رسول الله ﷺ يزورنا، فآخذ بيده فيدخل بيته فيأخذ بيدي فأدخله بيتي، وكان لي أخ صغير يقال له أبو عمير، وكان له نُغَر (عصفور صغير) يلعب به، فمات، فدخل رسول الله ﷺ يوماً فرآه حزيناً فقال: يا أبا عُمَير ما فعل النُّغَير؟" [رواه مسلم، كتاب الأدب، حديث رقم 2150].

فانظر كيف نزل ﷺ إلى مستوى الطفل، يخاطبه باسمه ويداعبه ويواسيه في حزنه على طائر صغير.

وكان ﷺ يقيم للصغير حقه، فلا يقطع حديثه، ولا يسفه رأيه، بل يعلمه بلطف وحب. وكان إذا صلى بالناس، وسمع بكاء طفل، خفف الصلاة رحمة بأمه حتى لا يطول عليها الموقف [رواه البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم 707].

أما الضعفاء، فقد جعلهم في قلبه، ورفع شأنهم، حتى قال:

"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم" [رواه البخاري، كتاب الجهاد، حديث رقم 2896].

وكان يجلس مع الفقراء، ويأكل معهم، ويشاركهم الحديث، حتى ظن الغرباء أنه واحد منهم.

دخل عليه رجل وهو يرتجف من هيبته، فقال ﷺ:

"هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة" [رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، حديث رقم 3312 وصححه الألباني].

بل إنه ﷺ كان ينهى عن إيذاء الضعيف أو استغلال حاجته، ويأمر بإكرامه وصيانته، ويربي أصحابه على أن ميزان الكرامة عند الله هو التقوى، لا القوة ولا المال، كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

لقد علمنا ﷺ أن الطفل أمانة، وأن الضعيف شرف، وأن من أراد أن ينال رضا الله فليكن رحيمًا بمن حوله، كبيرًا كان أو صغيرًا، قويًا أو ضعيفًا، فإن الرحمة التي نمنحها للناس هي في الحقيقة زاد نلقاه عند الله يوم نلقاه.

الفصل الثاني: حلمه ﷺ على من أساء إليه

كان الحلم عند رسول الله ﷺ بحراً بلا شاطئ، يفيض على القريب والبعيد، المؤمن والكافر، حتى على من تطاول عليه أو أساء إليه. لم يكن الغضب يجره إلى رد الإساءة بمثلها، بل كان يعلو فوقها، وكأنه يطفئ نار الجهل بماء الصبر.

قال الله تعالى في وصفه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]،

وقال أيضًا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

ومن أعظم المواقف التي تجسد حلمه ﷺ، ما حدث يوم فتح مكة، حينما وقف أمام قومه الذين آذوه وأخرجوه وحاربوه، وقد صار اليوم قادراً على الانتقام منهم. لكنه رفع رأسه وقال:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء" [رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجهاد، حديث رقم 17705، وصححه الألباني].

بكلمات معدودة، محا سنوات من العداء، وحوّل قلوب أعدائه إلى محبين.

ومن مواقفه أيضًا، قصة الأعرابي الذي جاء إلى المسجد، فبال فيه، فقام الصحابة إليه ليزجروه، فقال لهم ﷺ:

"دعوه وأريقوا على بوله سَجْلًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين" [رواه البخاري، كتاب الوضوء، حديث رقم 220].

لم يصرخ فيه، ولم يهينه، بل علّمه برفق، لأن قلبه كان يعلم أن الجهل دواؤه الرحمة لا القسوة.

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه:

"كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء" [رواه البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم 2980].

كان يستطيع أن يرد الغلظة بمثلها، لكنه اختار أن يردها بعطاء وابتسامة.

لقد كان حلمه ﷺ مدرسة مفتوحة، تعلمنا أن القوة الحقيقية ليست في البطش، وإنما في القدرة على العفو، وأن من ملك نفسه عند الغضب فقد نال درجة عظيمة عند الله. قال ﷺ:

"ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6114].

بهذا الحلم، فتح القلوب قبل أن يفتح البلاد، وربح النفوس قبل أن يربح الأرض، حتى صار عدوه بالأمس أخًا له في الدين اليوم.

الفصل الثالث: تواضعه ﷺ مع أصحابه والناس جميعًا

كان التواضع عند رسول الله ﷺ ليس خُلقًا عابرًا أو مظهرًا يتكلفه أما م الناس، بل كان طبعًا أصيلًا في قلبه، يجري في سلوكه كما يجري الد م في العروق. لم يرفع نفسه فوق أحد، ولم يرَ أنه أفضل من جلسائه إلا بما أكرمه الله من النبوة والرسالة، وكان يعلّم أصحابه أن الكرامة الحقيقية ليست في الملبس أو المجلس، بل في التقوى والعمل الصالح.

يقول الله تعالى في شأنه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215]،

وكأنها وصية ربانية أن يكون قريبًا من الناس، رحيمًا بهم، لين الجانب معهم.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لو دُعيتُ إلى كراعٍ أو ذراعٍ لأجبت، ولو أُهدي إليَّ كراعٌ أو ذراعٌ لقبلت" [رواه البخاري، كتاب الهبة، حديث رقم 2568].

وهذا الحديث يكشف عن بساطته وتواضعه في المعيشة، فكان يقبل القليل كما يقبل الكثير، ويشكر عليه.

وكان ﷺ يجلس بين أصحابه فيأتي الغريب فلا يعرفه من بينهم، فيسأل: أيكم محمد؟ ما كان له مجلس يميزه عنهم، ولا هيئة متكبرة، بل كان إذا دخل المجلس جلس حيث انتهى به المكان. وروى أنس بن مالك رضي الله عنه:

"كان النبي ﷺ يجلس حيث ينتهي به المجلس" [رواه الترمذي، كتاب الأدب، حديث رقم 2724، وقال: حديث حسن].

وكان يشارك أصحابه أعمالهم، لا يستنكف عن مساعدة أحد. في حفر الخندق، حمل التراب على ظهره معهم، وفي السفر كان يهيئ الطعا م ويجمع الحطب. روى أبو هريرة رضي الله عنه:

"كانوا إذا سافروا، فنزلوا منزلاً، قسموا عملهم، فكان النبي ﷺ يذهب فيجمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: قد علمتُ أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم" [رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم 9215، وحسنه الألباني].

وكان يزور المساكين، ويجلس معهم، ويستمع لهم، حتى قال له أحدهم يومًا: اجلس يا رسول الله على الوسادة، فقال:

"أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد" [رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، حديث رقم 3251، وحسنه الألباني].

هذا التواضع لم يكن ضعفًا، بل كان أعظم قوة؛ لأن المتكبر يخاف أن يخسر مكانته إذا اقترب من الناس، أما النبي ﷺ فكان واثقًا أن مكانته عند الله لا يرفعها الكرسي العالي، بل يرفعها القلب الخاشع والعمل الصالح.

وكان لهذا الخلق أثر عظيم على قلوب أصحابه، فكانوا يحبونه حبًّا يفوق حب النفس والمال، لأنهم رأوه واحداً منهم، يعيش بينهم، يواسيهم في أحزانهم، ويفرح لفرحهم، ويشعر بهمومهم.

الفصل الرابع: رحمته ﷺ بالضعفاء والمحتاجين

كانت الرحمة في قلب رسول الله ﷺ بحراً لا شاطئ له، تسع الكبير والصغير، الغني والفقير، القوي والضعيف، حتى العدو لم يسلم من فيضها. لكنها كانت تظهر في أبهى صورها حين يلتقي بالمحتاجين والضعفاء، لأنهم أقرب الناس إلى قلبه، وأعظمهم منزلة عنده.

يصفه ربه في كتابه الكريم بقوله:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وكلمة "عزيز عليه ما عنتم" تعني أن مشقتكم تؤلمه، وحاجتكم تحرك قلبه، فهو لا ينام هانئًا إذا علم أن في أمته جائعًا أو مكسور الخاطر.

كان ﷺ إذا جاءه السائل، لا يرده ولو بكلمة طيبة، امتثالًا لقول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10].

روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

"الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" [رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث رقم 1924، وصححه الألباني].

وكانت رحمته لا تقتصر على العطاء المادي، بل تمتد إلى احتضان النفوس الكسيرة. جاءه رجل يشكو الفقر والحاجة، فلم يجد النبي ﷺ في بيته ما يعطيه، فأرشده إلى عمل يده، وأعانه بأن باع له فأسًا، وقال:

"اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يومًا"،

فلما عاد الرجل وقد رزقه الله، ابتسم النبي ﷺ فرحًا، لأنه لم يرد أن يعيش الرجل على السؤال، بل على الكرامة والكسب الحلال. [رواه أبو داود، كتاب الزكاة، حديث رقم 1641، وصححه الألباني].

وكان ﷺ يجلس مع الأرامل واليتامى، يخفف عنهم، ويواسي قلوبهم. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

"كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ألطف أهله، وإذا دخل عليه مسكين، جلس معه، وأصغى إليه حتى يفرغ من كلامه" [رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم 7690].

وفي يوم فتح مكة، وقد صار في يده الأمر كله، جاءته امرأة ضعيفة تسأله العفو عن قريب لها، فدمعت عيناه ﷺ وقال: "إنما أنا رحمة مهداة" [رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم 100].

إن رحمته لم تكن مجرد شعور، بل كانت عملًا متجسدًا في حياته، حتى قال فيه الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

لقد كان رحمة تمشي على الأرض، فإذا لامست قلبًا أحيته، وإذا لمست روحًا طهرتها.

الفصل الخامس: حلمه ﷺ على من أساء إليه

كان الحلم في قلب رسول الله ﷺ تاج الأخلاق، ودرع العظمة، وسلاح القوي الذي يملك نفسه عند الغضب. لم يكن حلمه ضعفًا، ولا عفوه استسلامًا، بل كان قوة الإيمان التي تروض النفس، وتكسر شوكة الغضب، وتفتح باب الهداية حتى لأقسى القلوب.

لقد رباه ربه على ذلك منذ أول البعثة، فأمره بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

فأخذ العفو منهج حياة، يأسر به قلوب الأعداء قبل الأصدقاء.

من أعجب مواقفه ﷺ، قصة أعرابي جاءه يطلب مالًا، فأعطاه، ثم لما لم يعجبه العطاء، جذب بردائه بشدة حتى أثّر في عنقه الشريفة، وقال بغلظة: "أعطني من مال الله، لا من مالك ولا مال أبيك!"، فما كان من النبي ﷺ إلا أن التفت إليه مبتسمًا، وأمر له بزيادة العطاء [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6088].

ذلك الحلم لم يكن ليحدث لو كان قلبه أسير الكبرياء أو حريصًا على هيبة شكلية، لكنه كان يسعى إلى كسب القلوب، لا كسرها.

وفي مكة، حين اشتد أذى قريش، وأوذي في جسده ولسانه، وجاءه ملك الجبال يعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين، قال ﷺ:

"بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا" [رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم 3231].

أي حلم أعظم من هذا؟ لقد دعا لهم بالهداية وهم يطاردونه ويؤذونه!

وفي يوم فتح مكة، وقد صار قادراً على الانتقام ممن آذوه وحاربوه، جمعهم في المسجد الحرام وسألهم: "ما تظنون أني فاعل بكم؟" فقالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فقال ﷺ:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء" [رواه البيهقي في دلائل النبوة، حديث رقم 199/5].

بكلمة واحدة أطلق حرية مئات من أعدائه، وحوّل قلوبهم من العداء إلى المحبة.

بل حتى في بيته، كان الحلم سمة ملازمة له، فإذا أخطأ خادم أو تأخر في أمر، لم يسمع منه كلمة توبيخ قط. تقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

"خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء تركته لم تركته" [رواه مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم 2310].

لقد علّمنا ﷺ أن الحلم ليس ضعفًا، بل هو قمة القوة، كما قال:

"ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6114].

إنه درس خالد: أن تملك غضبك، وأن تنتصر على نفسك قبل أن تنتصر على غيرك.

الباب الخامس : حبنا للنبي ﷺ في حياتنا العملية

الفصل الأول: معنى حب النبي ﷺ الحقيقي

إن حب النبي ﷺ ليس كلمات تُقال في المناسبات، ولا دموعًا تذرف في لحظة خشوع فقط، بل هو منهج حياة، وشعور يملأ القلب حتى يفيض أثره على الجوارح. الحب الصادق لرسول الله ﷺ يعني أن يكون أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وأهلينا وكل ما نملك، كما قال ﷺ:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين" [رواه البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 15].

لكن، كيف يكون هذا الحب؟

إنه ليس ادعاءً باللسان، بل طاعة في العمل، واتباع في السلوك، وحرص على الاقتداء به في كل صغيرة وكبيرة. لقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

فجعل علامة حب الله، وحب رسوله ﷺ، هي الاتباع، لا مجرد القول.

كان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون هذا المعنى جيداً، فكانوا يقتدون به في كل شيء، حتى في هيئته وطريقة مشيه وجلوسه، لا حبًا في الشكل فقط، بل حبًا في الروح التي يحملها ذلك الشكل. كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يتتبع الأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ فيصلي فيها، والمواقف التي وقف فيها فيقف فيها، كل ذلك تعبيراً عن شدة حبه واتباعه.

إن الحب الحقيقي للنبي ﷺ يعني أن نضعه قدوة في تعاملنا مع أهلنا، وفي صدقنا في البيع والشراء، وفي رحمتنا بالصغار وكبار السن، وفي عفونا عمن أخطأ بحقنا. هو حب يجعلنا نستحي أن نراه يوم القيامة ونحن قد خالفنا سنته أو أهملنا وصاياه.

الحب الذي يغير الإنسان هو ذلك الذي يدفعه ليترك الحرام حبًا للنبي ﷺ، وليؤدي الصلاة في وقتها شوقًا لرؤيته وهو مسرور بنا، وليبذل المعروف للناس لأنه يعلم أن ذلك كان أحب الأعمال إلى قلبه ﷺ.

وإذا أردت أن تعرف صدق حبك للنبي ﷺ، فانظر كم مرة تفكر فيه في يومك؟ كم مرة تطبق سنته في طعامك وشرابك وكلامك؟ كم مرة تتذكر موقفًا من سيرته فيدفعك لتغيير قرارك أو تعديل سلوكك؟

قال ﷺ: "من رغب عن سنتي فليس مني" [رواه البخاري، كتاب النكاح، حديث رقم 5063].

وهذا تحذير واضح أن الحب بلا اتباع ليس حبًا حقيقيًا، بل وهمًا عاطفيًا لا ينفع صاحبه يوم يلقاه.

لذلك، علينا أن نجعل حب النبي ﷺ وقوداً لتحسين حياتنا، وميزانًا نزن به قراراتنا وأفعالنا، حتى نصبح صورة حية لما كان عليه من رحمة وصدق وعدل وحلم.

الفصل الثاني: كيف نترجم حبنا للنبي ﷺ في عبادتنا

إن العبادة ليست مجرد طقوس تؤدى، وإنما هي حياة يعيشها القلب قبل أن تتحرك بها الجوارح، وحب النبي ﷺ هو الذي يمنح العبادة روحها ومعناها. فإذا أحببنا رسول الله ﷺ حبًا صادقًا، وجدنا في عبادتنا أثرًا مختلفًا، وذقنا لذة لم نذقها من قبل، لأننا نعبد الله على طريقته، ونسير على نهجه.

لقد كان ﷺ أكثر الناس عبادة لربه، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه" [رواه البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم 1130]. وعندما سُئل عن سبب ذلك وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً" [رواه البخاري، كتاب التهجد، حديث رقم 1130].

هذا هو المقياس: العبادة بدافع الشكر، لا بدافع العادة أو الخوف فقط.

حب النبي ﷺ يجعلنا نصلي ونحن نستحضر أنه كان إذا دخل في الصلاة، قال: "أرحنا بها يا بلال" [رواه أبو داود، كتاب الصلاة، حديث رقم 498]. فهو كان يرى في الصلاة راحة القلب، لا مجرد تكليف. فإذا أردنا أن نترجم حبنا له، فعلينا أن نصلي كما كان يصلي، بخشوع وحضور قلب، ونحرص على السنن والنوافل كما كان يحرص عليها.

وفي الصيام، نتذكر أنه ﷺ كان يكثر من الصيام في شعبان والاثنين والخميس، وكان يحرص على السحور ويقول: "تسحروا فإن في السحور بركة" [رواه البخاري، كتاب الصوم، حديث رقم 1923].

حبنا له يجعلنا نصوم كما كان يصوم، نصوم عن الأذى والكلام الباطل قبل أن نصوم عن الطعام والشراب، ونفرح بالفطر كما كان يفرح به.

وفي الزكاة، نتذكر رحمته بالفقراء، وحرصه على أن تصل الصدقة لمستحقيها، وأن يعطي بلا تردد من كان في حاجة. وحبنا له يجعلنا نبادر بالعطاء قبل أن يُطلب منا، ونعطي بابتسامة وطيب نفس، لا بمنٍ ولا أذى.

أما الحج، فهو رحلة في أثره ﷺ، نسير فيها على خطاه في كل شعيرة، ونردد التلبية كما لبّى، ونقف في عرفات متضرعين كما كان يتضرع، وندعو كما دعا، ونعود وقد تجددت أرواحنا كما كان يعود الصحابة رضي الله عنهم.

إن ترجمة حب النبي ﷺ في العبادة تعني أن نحيا هذه العبادات بروح محمد ﷺ، وأن نراها فرصة للارتقاء، لا عبئًا على الجسد، وأن نستحضر دائمًا أننا نفعل ما كان يحبه هو، وأنه سيفرح بنا يوم نلقاه إذا رأى أننا اتبعناه بصدق.

الفصل الثالث: حب النبي ﷺ في تعاملنا مع الناس

إن من أعظم مظاهر حبنا لرسول الله ﷺ أن نتعامل مع الناس كما كان يتعامل معهم، فحبه لا يُقاس فقط بكثرة الصلاة عليه أو بمدحه بالكلمات، بل بمدى تطبيقنا لأخلاقه في حياتنا اليومية. فقد كان ﷺ نموذجًا فريدًا في حسن الخلق مع القريب والبعيد، مع المحب والمخالف، حتى شهد الله له بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

كان ﷺ لين الجانب، بشوش الوجه، حتى قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: "ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي" [رواه البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم 3035]. وهذه البسمة لم تكن مجرد عادة، بل كانت رسالة حب وسلام تدخل القلب قبل الأذن.

في تعامله مع الضعفاء والفقراء، كان ﷺ يشاركهم همومهم، ويجلس معهم، ويأكل مما يأكلون، حتى لا يشعر أحد أنه أقل شأنًا. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6039]، أي كان يساعد أهله في أعمال البيت، وهذه قمة التواضع.

حتى مع من أساء إليه، لم يكن ﷺ يقابل السيئة بالسيئة، بل كان يعفو ويصفح، امتثالًا لقوله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: 34].

وعندما جاءه رجل يطالبه بدَين بلهجة خشنة، غضب بعض الصحابة، فقال ﷺ: "دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا" [رواه البخاري، كتاب الاستقراض، حديث رقم 2400]، ثم قضى دينه وزاده فوق حقه.

وحبنا له يقتضي أن نتعامل مع أهلنا برفق، ومع أصدقائنا بود، ومع جيراننا بإحسان، ومع من نختلف معهم بعدل واحترام، لأن هذا ما كان يفعله ﷺ.

إن المجتمع الذي يطبّق أخلاق النبي ﷺ يصبح مجتمعًا تتلاشى فيه الأحقاد، وتذوب فيه الخصومات، ويعم فيه السلام، وهذا ما نحتاجه اليوم.

الفصل الرابع: حب النبي ﷺ في مواجهة الابتلاءات

إن من علامات صدق الحب لرسول اللّه ﷺ أن نقتدي به في الصبر على الابتلاءات، وأن نتذكر أنه ﷺ كان أكثر الناس بلاءً، ومع ذلك كان أكثرهم شكراً ورضًا بقدر اللّه. فقد قال ﷺ: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل" [رواه الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم 2398، وقال حديث حسن صحيح].

لقد واجه النبي ﷺ أنواعًا من الابتلاءات: في جسده، وفي أهله، وفي أصحابه، وفي وطنه، وفي دعوته، ومع ذلك لم يتزحزح قلبه عن اليقين باللّه. خرج من مكة التي أحبها مُكرهًا، وقال وهو يودعها: "واللّه إنك لخير أرض اللّه، وأحب أرض اللّه إلى اللّه، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت" [رواه الترمذي، كتاب المناقب، حديث رقم 3925].

ابتُلي ﷺ بفقد أحب الناس إلى قلبه؛ فقد مات عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضي اللّه عنها في عام واحد، فسُمّي ذلك العام بعام الحزن، ومع ذلك لم ييأس، بل ازداد إقبالًا على اللّه، وسار إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام، فآذوه وسخروا منه، فجاءه جبريل ومعه مَلَك الجبال، فقال: "إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين"، فقال ﷺ: "بل أرجو أن يُخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئًا" [رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم 3231].

وحين اشتد عليه الحصار في شِعب أبي طالب، لم يكن معه من الزاد إلا القليل، حتى كان الصحابة يربطون على بطونهم الحجر من شدة الجوع، ومع ذلك ظل ﷺ يعلّمهم الصبر، ويزرع فيهم الأمل، ويقول: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله اللّه هذا الدين" [رواه أحمد، مسند رقم 16957، وقال الألباني صحيح].

والاقتداء به في مواجهة الابتلاءات يعني أن نكون ثابتين عند الشدائد، لا نجزع ولا نتسخط، بل نؤمن أن ما عند اللّه خير مما فقدناه، ونثق أن الفرج قريب، ونكثر من قول: "إنا للّه وإنا إليه راجعون" كما أمرنا ربنا في قوله:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 155-156].

وهكذا نفهم أن حب النبي ﷺ لا يظهر فقط في أوقات الراحة، بل يتجلى بوضوح في أوقات الشدة، حين نختار الصبر والثبات كما فعل هو ﷺ.

الفصل الخامس: حب النبي ﷺ طريقنا إلى الجنة

إن حب النبي ﷺ ليس شعوراً عاطفياً مجرداً، بل هو طريق واضح يقودنا إلى الجنة إذا صدقنا فيه واتبعناه في حياتنا. فقد جعل رسول الله ﷺ حبَّه شرطًا للإيمان الصادق، فقال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين" [رواه البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم 15].

والحب الصادق للنبي ﷺ هو حب يترجم إلى أفعال، فيجعلنا نتمسك بسنته، ونسير على هديه، ونحيا كما كان يحيا. وقد بشر ﷺ من أحبَّه صادقًا برفقته في الجنة، فقال: "المرء مع من أحب" [رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 6168]. ولما سمع الصحابة هذا الحديث، قال أنس رضي الله عنه: "فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من فرحنا بقول النبي ﷺ: المرء مع من أحب"، ثم قال: "فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل مثل أعمالهم".

حب النبي ﷺ طريق إلى الجنة لأنه حب يدفعنا إلى طاعة الله، ويبعدنا عن معصيته، ويجعلنا نستحي أن يرانا الحبيب المصطفى ﷺ يوم القيامة ونحن خالفنا أوامره أو أهملنا سنته. قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]. وهذه الآية جعلت الاتباع هو البرهان الحقيقي على المحبة.

وتأمل كيف ربط النبي ﷺ بين البساطة في العمل وعلو المنزلة بحبه؛ فقد جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله، الساعة متى؟، فقال ﷺ: "وماذا أعددت لها؟"، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: "أنت مع من أحببت" [رواه مسلم، كتاب البر والصلة، حديث رقم 2639].

فالحب الصادق للنبي ﷺ يثمر حسن الخلق، والرحمة بالناس، وحب الخير لهم، تماماً كما كان ﷺ، وهذا بحد ذاته طريق للفوز بالجنة، فقد قال ﷺ: "أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا" [رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث رقم 2018، وقال حسن صحيح].

إننا حين نعيش حياتنا ونحن نتذكر سيرة النبي ﷺ، ونتأمل مواقفه في الصبر، والعفو، والرحمة، والعدل، فإننا نصنع من حبنا له جسراً نعبر به إلى الجنة، وندعو الله أن يجمعنا به عند الحوض، وينادينا كما في الحديث: "إن لكل نبي حوضًا، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة" [رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، حديث رقم 2443، وقال حسن صحيح].

فلنكن صادقين في حبنا، ولنجعل هذا الحب قوة تدفعنا إلى العمل، ولنتذكر دائمًا أن من أحب النبي ﷺ ولم يتبعه، فقد أحب صورة بلا روح، أما من أحبه واتّبعه، فقد أحبّه حبًّا يفتح له أبواب الجنة.

الخاتمـــة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى محمد ﷺ، الذي علّمنا كيف نحب الله حق الحب، وكيف نحب الخلق بصدق، وكيف نمضي في حياتنا بين العطاء والصبر، بين الدعاء والعمل، بين الإيمان والتضحية.

لقد سرنا معًا في صفحات هذا الكتاب، نتلمس خُطى النبي ﷺ، ونقترب من قلبه الطاهر، ونتأمل في حياته المضيئة التي لم تكن مجرد سطور في التاريخ، بل كانت نورًا يمشي على الأرض. رأينا كيف كان الحبيب ﷺ رحيمًا بالصغير والكبير، عطوفًا على الضعيف، ناصحًا للأمة، كيف كانت عبادته تنضح بالخشوع، وقلبه يفيض بالحب لكل من حوله، حتى أعدائه لم يسلموا من رحمته.

ولعل أجمل ما نخرج به من هذه الرحلة، أن حب النبي ﷺ ليس كلمات تُقال، ولا دموعًا تنهمر حين نسمع اسمه الشريف فقط، بل هو اتباع عملي لسيرته، والتشبث بسنته، وتطبيق تعاليمه في كل لحظة من حياتنا. فالحب الحقيقي له ﷺ هو أن نكون مرآة لما كان عليه، في صدقنا وأمانتنا، في رحمتنا وعدلنا، في تواضعنا وشجاعتنا، وفي حبنا لله وطاعتنا له.

لقد مرّ الحبيب ﷺ بابتلاءات ومواقف صعبة، ومع ذلك ظل قلبه عامرًا بالرضا، ولسانه رطبًا بالشكر، وعينه متطلعة إلى ما عند الله. وهذا وحده درس لنا جميعًا: أن الطريق إلى الجنة لا يخلو من الصعوبات، لكن من سار فيه كما سار حبيب الله ﷺ، وصل في النهاية إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أخي القارئ، وأختي القارئة... هذا الكتاب أمانة في يديك، فاجعله بداية لا نهاية، وابدأ من الآن بربط حياتك بسنة نبيك ﷺ، فسترى العجب في قلبك، وفي أسرتك، وفي حياتك كلها. اجعل سيرته مرآتك، وأخلاقه منهجك، وابتسامته عزاءك، ودمعته تذكيرك، وعهده معك وعداً لا ينكسر.

نسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يرزقنا حب نبيه ﷺ، وأن يجعلنا من الصادقين في اتباعه، وأن يحشرنا في زمرته، ويجمعنا به على الحوض، ويقر أعيننا برؤيته في الفردوس الأعلى، حيث لا فراق ولا ألم ولا حزن، فقط السعادة الأبدية في جوار الحبيب ﷺ.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.